مدرسة الحوليات الفرنسية من تاريخية التوجه إلى تاريخانية التمثل

أ. نصيرة مصابحية
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة باجي مختار – عنابة

الملخص :

يعتبر علم التاريخ من أهم العلوم التي ساهمت في تطوير الوعي الإنساني والبحث عن مضمرات تفكيره وكيفية تطوره عبر العصور، وقد حملت مدرسة الحوليات الفرنسية لواء الكشف عن هذه المضمرات، كما أنها حاولت الخروج بالتاريخ من بوتقة التاريخانية والحتميات المختلفة إلى التاريخ العلمي الموضوعي.

الكلمات المفتاحية : تاريخ، الحوليات، تاريخ شامل، تاريخانية.

ABSTRACT :

History is one of the most important sciences that have contributed to the development of human consciousness and the search for its fields of thought and how it has evolved through time. The French School of Annals was behind the discovery of these fields. It has as well attempted to get history out of historicism and the various determinants to the objective scientific history.

KEY WORDS : history, annals, global history, historicism.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

مقدمة :

يمثل عصر النهضة المرحلة الانتقالية في الوعي الأوروبي من العصور الفيودالية إلى العصر الحديث الرأس المالي، ومن السلطة الكنسية والميتافيزيقية إلى سلطة العقل والإبداع، فقد كان هذا العصر عصر قطيعة إبستيمولوجية مع كل تفكير ماضوي حيث صار الإنسان سيد الكون ومركزه وبهذا فقدت الكنيسة هيمنتها المطلقة على الفكر والوجدان، وتطورت بذلك المفاهيم والآليات النقدية والفلسفية.وقد استفاد علم التاريخ من هذا التحول الفكري حيث انتقل من كونه مجرد سرد أسطوري للأخبار كما تجلى ذلك في الملاحم اليونانية إلى علم قائم بذاته له أصوله ومبادئه.

ويعتبر علم التاريخ من أقدم العلوم ظهر لما توصل الإنسان إلى ترتيب فكره وتطوير معرفته، فاكتشف حقيقة الزمن، وتوصل إلى أن تدوين الماضي شيء مهم في مساره الثقافي، وبهذا فان المنهج التاريخي ليس وليد فكر معين ولا حضارة بعينها ولا وليد عصر من العصور، بل هو نتاج معرفي جاء كحوصلة لتفاعل الفكر البشري وتفاعل الحضارات فيما بينها «فلا هو نتاج الحضارة الغربية وحدها ولا هو ثمرة القرن التاسع حصرا كما شاع عند البعض، إن المنهج هو موضوع دائم القواعد وضوابط وتقنيات سعي ويسعى دائما إليه منذ زمن بعيد هذا هو حال المنهج التاريخي كما يقول أحد المؤرخين المعاصرين منذ ألفي سنة »[1] .

وسنحاول من خلال المنهج التحليلي النقدي رصد الملامح الفكرية لمدرسة الحوليات باعتبارها المدرسة الأولى التي حاولت إرساء معالم الموضوعية في مقاربة الحوادث التاريخية بناء على مختلف العلوم الإنسانية،ونستطيع القول إن هذه المدرسة لاقت رواجا معرفيا، بسبب ما حققته من نتائج ساهمت في تغيير الموقف من التاريخ كما أنها ساهمت في تغيير الرؤية النمطية التي صاحبت هذا العلم منذ عصور طويلة من خلال الاتجاهات التي حاولت تفسيره مثل:اتجاه التعاقب الدوري للتاريخ،التفسير البطولي للتاريخ،التفسير المثالي،التفسير اللاهوتي، التفسير المادي،التفسير البيولوجي.

وتأتي مدرسة الحوليات لتدشن عصرا جديدا من التدوين التاريخي، حيث حطمت مفهوم الحتميات والنزعات المختلفة التي رافقت هذا التدوين لعصور طويلة : كالنزعة الدينية والإنسانية، النزعة العقلانية، الرومانسية،الوضعية،التاريخانية، الماركسية، البنيوية. ونستطيع القول إن هذه المدرسة في تاريخ تطور مسار هذا العلم تعد الفيصل المعرفي في تشكل ملامح علم التاريخ بطريقة موضوعية بعيدا عن التحيزات والحتميات التي أطرت الفكر البشري منذ قديم الزمان،ولن نبالغ إذا قلنا أن هذه المدرسة حققت موضوعيتها من الناحية النظرية لكنها من ناحية التطبيق وقعت في شرك الحتميات وبالتالي اتجهت نفس اتجاه المدرسة التاريخانية،مع أنها كانت ترفضها رفضا مطلقا.

وتجدر الإشارة إلى أن تعريف التاريخانية يتحدد ضمن مسار الوعي بمضمرات الفكر البشري وكيفية تطوره، لأن علم التاريخ في هذا الاتجاه سن طريقة خاصة في تفسير الأحداث حيث أصبح لهذا العلم قوانين تفسره وتتحكم به، مما يجعلنا نستطيع التنبؤ بالتاريخ وقد نتج هذا النمط من التفكير عن تيارين أساسيين هما :

1-التطور التاريخي يتم وفق تطور الكائنات الحية،وهو الاتجاه الذي اتبعه هيغل فلسفة تطور الأفكار.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

2- تأسيس علم للمجتمع قائم على قوانين التطور الاجتماعي من أهم رواده: Auguste Comteأوغست كونت،و San Simonسان سيمون[2].

ومما تقدم نستطيع القول إن التاريخانية تقوم على مفهوم مركزي واحد وهو النموDéveloppement ، أوالتطورProgress ، بمعنى أن للتاريخ نموذج واحد للنمو وهذا ما رفضته مدرسة الحوليات التي أسست للتاريخية بمنظور أكثر انفتاحا من التاريخانية، حيث أنها تسعى إلى تقويض مبادئ التاريخانية التي رأت فيها تسييجا للفكر الإنساني وقتلا لإبداعه،

جاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية تعريف التاريخانية والتاريخية كما يلي :أما التاريخية «L historicité «فهي صفة لكل ما هو تاريخي مميز عن الخرافي أو الخيالي كما أنها من جهة أخرى ميزة الإنسان الذي يعيش التاريخ ويحياه باعتباره كائنا زمنيا وكائنا تاريخيا . والنزعة التاريخية «Historisme» هي النظر إلى كل موضوع معرفي على أنه نتاج حاضر ناشئ عن التطور التاريخي . أما أصحاب المذهب التاريخي «Lhistorecisme» فيرون أن الأحداث والظواهر الاجتماعية تتصف بالنسبية التاريخية، وهي على ذلك غير قابلة لأن تدرس على غرار الظواهر الطبيعية»[3].وبهذا حاولت مدرسة الحوليات تغيير مسار البحث التاريخي وإعادة ترميم الوعي الإنساني في موقفه من التاريخ والزمن .

1-ارهاصات مدرسة الحوليات وأهم أسباب ظهورها:

بعد خروج العالم من الحرب العالمية الأولى تغيرت معالم الخريطة الفكرية واتسع نطاق البحث العلمي ليطال الاقتصاد باعتباره القطب الأساسي في تحريك عجلة التطور والحضارة، كما وضعت فكرة التقدم Progrès محل التساؤل والجدل خصوصا بعد انفجار الأزمة المالية الكبرى من بورصة وول ستريت Wall Street في أكتوبر 1929 فلقد بدأت «الأسئلة تتوجه إلى الحقل الاقتصادي لاسيما إلى تاريخ الأسعار لفهم ما يجري من انتكاسات وتراجعات وأزمات اجتماعية» [4].

كما أن الحرب العالمية الأولى جعلت من المفكرين يعيدون النظر حول كتابة التاريخ، فلم يعد التاريخ الكلاسيكي يعنيهم، حيث وسعوا دوائر اشتغالهم واستغنوا عن النمطية في الكتابة التاريخية فظهرت بذلك مؤلفات جديدة» من ذلك كتابات شبينغلر Oswald Arnold Gottfried Spengler انحطاط الغرب le déclin de l'accédait سنة 1920 وكتابات أخرى عن أزمة الحضارة الأوروبية عبرت كلها عن اهتزاز يقينيات ما قبل الحرب والالتفات إلى مراكز أخرى (اليابان، الولايات المتحدة) وإلى تجاوز المركزية الأوروبية نحو تعدد الحضارات، وإلى ممارسة نقد الأفكار السائدة الموروثة من القرن التاسع عشر...»[5].

فقد سعى المؤرخ الجديد إلى نقد الأفكار وتمحيصها ورفض كل ما هو سائد في التاريخ وكسر القواعد المنهجية المتوارثة وأعاد صياغة النظرة التاريخية من منطلق المجتمع وقضاياه وبهذا رفض التاريخ السياسي الذي ساد لدى المدرسة المنهجية الفرنسية ومن هذا المنطلق حاول المؤرخ الفرنسي «التفلت من وصاية الدولة على المعرفة، لاسيما المعرفة التاريخية، إنها محاولة الخروج عن التاريخ الرسمي الذي كانت قد فرضته المدارس والجامعات المدرسة المنهجية الفرنسية»[6].

كما تأثر التاريخ الفرنسي في هذه المرحلة بعلم الاجتماع خصوصا بمدرسة دور كهايم David Émile Durkheim الذي أسس عام 1897 مجلة الحوليات السوسيولوجيةL'année Sociologique ويرى هذا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

المفكر أن علم الاجتماع يجب أن يستفيد من العلوم القريبة لتعميق مفهوم السببية الاجتماعية للظواهر، كما أكد على أهمية علم التاريخ « إذ يعده جوهريا، ولكن على المؤرخ أن يكتفي بجمع الرحيق الذي يجعل منه عالم الاجتماع عسلا، أما عند ما يطمح التاريخ أن يحلل ويفسر الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فإنه يصبح في رأي دور كهايم فرعا من علم الاجتماع»[7].

وبهذا مارست مدرسة علم الاجتماع تأثيرا كبيرا على علم التاريخ الفرنسي وما شهده هذا الأخير من تحولات جذرية، جعلته يخرج من حيز التاريخ السياسي إلى رحاب دراسات الحياة الاجتماعية الشاملة. كما شكل الجدل القائم بين علم الاجتماع وعلم التاريخ أرضا خصبة جعلتها مدرسة الحوليات الفرنسية مهدا لدراساتها، كما استفادت هذه المدرسة من أفكار المدرسة التاريخية الألمانية التي تزعمها ماكس فيبر ويرى هذا الأخير بأن المعرفة الإنسانية تلتقي وتتشابك في معالجة الظواهر الاجتماعية والدينية والاقتصادية في كل واحد متكامل وأنه لا يوجد انفصال بين هذه المعارف «لاسيما حين معالجة تعددية الخلفيات والتكوينات والأبعاد، كما هو الشأن في كتاب ماكس فيبر الاقتصاد والمجتمع أو كتاب الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية.....»[8].

فقد قدم ماكس فيبر Maximilian Carl Emil Weber في معالجة التاريخ والمجتمع منهجا متكاملا تتعاضد فيه جميع العلوم الإنسانية وذلك من أجل فهم الظواهر والمحطات الكبرى في التاريخ الاقتصادي والسياسي والديني فقد استفاد»ماكس فيبر من المدرسة الألمانية التاريخانية ولكنه تجاوزها لناحية البحث في ما تعنيه الواقعات، كمسائل كبرى في التاريخ العالمي، وتاريخ الحضارات المقارن»[9] .

فقد تخطى مسألة الدوائر المغلقة في معالجة التاريخ وكسر مركزية الرؤية ليجعل التاريخ أكثر مرونة، كما أنه ركز على الربط بين العلوم الإنسانية والاجتماعية من أجل إحراز نتائج أكثر علمية، وما ميز مجهود فيبر أنه استلهم أفكار ماركس وإنجلز لكنه شذ عن أفكارهما التي ربطت بين الدين والاقتصاد بنظرية الانعكاس ورأى بأن الدين والمعتقدات تؤثر بشكل مباشر في جمع الثروة في المجتمعات.

وبهذا فإن رؤية مدرسة الحوليات الفرنسية للتاريخ نتجت عن تأثرها بتيارات فكرية مختلفة أسست للبديل الفكري كما كسرت قيود النمطية التي أعاقت التاريخ في تطوره كعلم، والحديث عن نشأه هذه المدرسة يدفعنا بالضرورة إلى الإشارة إلى تاريخ آخر هام ساهم في تبلورها وبروزها وهو استقلال الألزاس واللورين وعودتهما الى السيادة الفرنسية 1919، وتحولت جامعة ستراسبورغ إلى رمز علمي«وكان المطلوب أن تمحو هذه المنارة العلمية بإشعاعها عار أربعين سنة من الاحتلال الألماني (1872 -1918) وأن يثأر الفرنسيون عمليا من التبحر الألماني المعروف l'érudition، وتم اختيار أحسن الأساتذة الفرنسيين للتدريس بجامعة ستراسبورغ مثل عالم النفس شارل بلوندالCharles blondel، وعالم الجغرافيا هنري بورلينغ Henry Bourling، وعالم الاجتماع موريس هلبواكس Mauric Halbwachs، وعلماء التاريخ مارك بلوخ ولوسيان فافر LUCIEN FEBVRE، ولابد من الإشارة كذلك إلى أن هذه الجامعة كانت تضم كلية الحقوق وكلية دينية ولا جدال في أن تعدد الاختصاصات في جامعة واحدة ينتج تلاقح الأفكار وإخصابها»[10]

وبهذا فإن من أهم أسباب انطلاق مجلة الحوليات الفرنسية هوالتحدي الفكري للفرنسيين ومحاولة إثبات ذواتهم أمام الثقافة الألمانية بعد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

استعادة الألزاس واللورين وقد ظهرت مجلة الحوليات تحت «اسم حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي Les annales L'histoire Economique et Sociale 5 جانفي 1929، وصدرت عن دار نشر أرمان كولان collui Armand وكان مديرا المجلة هما لوسيان فافر «Lucien Febvre».....ومارك بلوخMarc Bloch.....وقد تدربا على صناعة التاريخ منذ بداية القرن العشرين في المجلة التاريخية التأليفية La revu Synthèse historique التي أسماها هنري بار عام 1900»[11].

واهتمت هذه المجلة بالمقالات التاريخية التي نوعت مصادرها في البحث عن الحدث التاريخي والتي اعتمدت على العلوم القريبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ومزجت بينها في الدراسة.

وقد غيرت المجلة اسمها عديدا من المرات «حوليات التاريخ الاجتماعي Annales historique et sociale (1939 - 1941)، ثم أمزاج تاريخية Mélanges d'histoire (1942 - 1944)، ثم عادت المجلة التي اسمها القديم 1945 حوليات التاريخ الاجتماعي، وفي عام 1946 ثبت اسم الحوليات: اقتصاديات مجتمعات حضارات – Annales Economies – Société - Civilisation»[12].

تبنت هذه المجلة منهجا مغايرا في معالجة الأحداث التاريخية حيث حاولت قطع صلتها بالتاريخ الوضعي الذي أسسته المدرسة الوضعية الألمانية،ورأت بأن هذه الأخيرة قلصت أهمية التاريخ في «البحث عن الموضوعية فقط وإنما الأهم بالنسبة إلى الحوليات هو شخصية المؤرخ، لأن ما يميز مؤرخا عن آخر، ليس اكتشاف المصادر التاريخية الجديدة وإنما ما يطرحه المؤرخ من أسئلة وجهة على تلك المصادر Histoire - Problème»[13].

وحتى يأخذ التاريخ صفة العلمية حاولت هذه المدرسة صياغة مبادئها ارتكازا على هدم المتعارف والموروث خصوصا التسلسل الكرونولوجي للأحداث وبالتالي رفضت «التاريخ الحدثي Histoire évènementielle»[14]،وأقامت التاريخ غير الحدثي «Histoire non évènementielle»[15].

2-من التاريخ الحدثي الى التاريخ الشامل :

حاولت هذه المدرسة بلورة مفهوم التاريخ الشامل، وذلك بالدعوة لاتحاد العلوم الإنسانية والاجتماعية وأيضا ممارسة الأبحاث الميدانية على أرضية التاريخ المعاصر، كما حاولت أن تبني أفكارها من منطلق السجال النقدي مع المدرسة المنهجية «وبخاصة مع سينوبوس من أجل إبراز عقم التاريخ بأسلوب التسلسل الحدثي،وقد أخذ من كتاب سينوبوس تاريخ روسيا مثالا على سطحية هذا التاريخ حيث لا يرى في المشهد التاريخي كما يقول إلا قياصرة ومآسي قصور ووزراء متأخرين وبيروقراط .... ولكن الحياة الزاخرة الأصلية والعميقة لهذه البلاد، حياة الغابة والسهوب والموجات السكانية المتحركة... والحياة المتفجرة للأنهار والصيادين وللمراكب، ولطرق الترانزيت... ودور العقيدة الارثوذكسية في الحياة الجماعية...والمسائل اللغوية والتعارضات الإقليمية ومسائل أخرى كلها غائبة»[16].

يقر أصحاب هذه المدرسة بالعلاقة الوثيقة بين البيئة الجغرافية وأنماط العيش وقد تأثرت بأفكار عالم الجغرافيا بول فيدال دي لا بلاش « Paul Vidal de la Blache» مؤسس «مجلة حوليات الجغرافيا»، فقد انتقل هذا المفكر في منهجه من الحتميات الجغرافية للمجال الطبيعي أوبمعنى أوضح دراسة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

الوسط الطبيعي بعلاقاته المتفاعلة مع الإنسان حيث درس «الجغرافيا من زاوية العلاقة (أرض / إنسان) فعمقت دراسته عددا من المفاهيم «الوسط Milieu»، نمط الحياة «Genre de Vié»، المشهد «الراهنOuotillienneté»، وكانت هذه المفاهيم مرجعا لدراسة مؤرخي مجلة الحوليات، مكنتهم من تعميق دراستهم التاريخية لفهم العلاقة الجدلية بين البشر والمكان»[17].

ودعـم هذا الموقف من الجغرافيا مارك بلوخ Marc Blochحيث أقر بأن التاريخ وحده لا يكفي للوصول للحقيقة التاريخية الشاملة، وأن الوثائق على الرغم من دعمها للجانب الموضوعي إلا أنها تظل قاصرة على الإحاطة بالواقعة التاريخية لذلك أصر على أن التاريخ يجب أن يدعم بعلوم أخرى كالأنثروبولوجية وعلم الآثار وخصوصا علم الجغرافيا لما لهذا العلم من أثر كبير على رصد الظواهر التاريخية ضمن حيزها الجغرافي وما يمتاز به ذلك الحيز من مواصفات ومميزات تؤثر على بنية الحدث وكيفية تبلوره، فمارك بلوخ كزميله لوسيان لوفافر LUCIEN FEBVRE» يقر بأهمية الوثائق وأهمية التبحر بمعطياتها ومفرداتها وجزئياتها لكن هذا لا يكفي لأنه لا ينبغي بالاكتفاء بالوثائق وتصديقها كمصادر للتأريخ، إن ركام الوثائق Stockالتي يمتلكها التاريخ ركام غير محدود ولا يقتصر التأريخ على الوثائق المكتوبة، يمكن استكمال دراسة الحركات السكانية والهجرات من خلال المقابر الأثرية في منطقة من المناطق أو حضارة من الحضارات، ثم إن المعتقدات والمشاعر والعواطف يمكن أن تنبئ عنها الصور والرسوم والتماثيل أكثر مما تنبئ عنها النصوص»[18].

فمـارك بلوخ Benjamin Bloch Léopold Marc لا يدعوإلى اكتشاف مصادر جديدة للتاريخ فقط بل هو يركز على علاقة التاريخ بغيره من العلوم وهي النقطة الجوهرية التي انبثقت عليها مدرسة الحوليات وحاولت أن تؤسسها كمبدأ خاص في معالجة الحدث التاريخي وفي ممارسة عملية التاريخ. وبوفـاة لوفافر LUCIEN FEBVRE عام 1956 تولى رئاسة المجلة ..... بردويل «Fernand Braudel»، وقد حققت هذه المدرسة برئاسته نتائج باهرة على مستوى الدراسة التاريخية، حيث أن هذا المؤرخ سعى إلى إلغاء فكرة المركزية الأوروبية، وفتح المجال أمام الفكر العالمي، وهذا ناتج عن آثار الحرب العالمية الثانية، كما اتجهت المجلة إلى الاهتمام بالمسائل الاقتصادية وكان أثر ماركس واضحا فيها وهذا الاهتمام راجع إلى ما خلقته الحرب الثانية من دمار شامل على جميع المستويات والأصعدة «وقد ظهرت على المجلة دراسات متينة عن النشاطات الاقتصادية وعن الموانئ والهياكل العائلية وعن ظاهرة التمدرس..... إلخ وظهر في صلبها شغف بالتاريخ الجدولي l'histoire Sérielleالذي يعتمد على تحويل كم هائل من الوثائق حول نفس الموضوع إلى جداول رقمية مفيدة جدا»[19].

ومع بداية الستينيات هيمنت الأنثروبولوجيا البنيوية وتأثرت بها مجلة الحوليات، خصوصا بأفكار رائدها كلود ليفي شتراوس «Claude Lévi-Strauss «وبهذا تداخلت موضوعات البحث بين المؤرخين والإنتولوجيين فأثرى مجال البحث وانكسرت الحدود بين العلوم وتداخلت فيما بينها، كما تجادل العلمان حول مفهوم البنية وحاول كل منهما تحديد ما تعنيه هذه البنية وظيفيا ونفعيا بالنسبة لحقل اختصاصهم»[20].

وحـاول كلود ليفي شتراوس-Claude Lévi Strauss أن يضع مجموعة من المبادئ التقنية التي تحدد معنى البنية وترصد دلالاتها مفاهيميا وإجرائيا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

وذلك بعد وضعها ضمن جملة من المصطلحات والمبادئ الإجرائية من أجل بلورتها كمفهوم لغوي لساني وكمفهوم اجتماعي وكاتجاه مستقل يمارس حضوره عن طريق التجلي، ونقصد بالمستقل أن البنية في نظر هذا المفكر أخذت أهمية كبيرة لدرجة أنها تحولت إلى اتجاه أساسي داخل منهجه الفكري، فمن خلال مفهوم البنية في بعدها الاجتماعي تتضح الرؤية وتستقيم، وحتى يحدد مفهوم هذه الأخيرة فقد سعى إلى ترتيب أفكاره وتمحيصها من أجل الخروج بنتيجة موضوعية أول هذه الأفكار، هي التخلي: «عن فكرة الاثنية المركز الأوروبية التي تحكمت بأعمال الكثير من المؤرخين والباحثين الاجتماعيين الغربيين، كانت هذه الفكرة تشدد على تبني المقولة الحالية : إن مختلف الحالات التي تفسدها المجتمعات البشرية ماهي إلا مراتب أودرجات Etapes على طريق نموالإنسانية»[21].

وبهـذا حدد مراحل تكون المجتمع بالمراتب أوالدرجات هذه المراتب أوالدرجات لا تتحرك إلا وفق مفهوم التقدم والتطور هذا الأخير الذي يساهم في تبلورها ارتكازا على جملة من البنيات الداخلية التي تمنحها ملامحها ومميزاتها الخاصة. والتقدم في رأي كلود ليفي شتراوسClaude Lévi-Strauss «لا يحصل بحكم الحتمية أوالضرورة أوبحكم الديمومة أوالاستمرارية فهو-أي التقدم بهذا المعنى الأحادي– ليس ضروريا وليس دائما، فقد يحصل عبر فقرات (Souts) أوعبر طفرات Mutationوباتجاهات مختلفة وليس باتجاه واحد، يضاف إلى أن هناك مجتمعات قد تكون أكثر تراكمية «Cumulatives» من أخرى في مجال اكتساب مهارات من هذا النوع وقد تجمد في مرحلة وتنمو في مرحلة أخرى»[22].

فالبنيـة هنا تحدد حسبه باعتبارها جملة الخصائص المميزة لكل مجموعة بشرية أوطائفة ثقافية أو فكرية، وهذه الخصائص تظهر للعيان من خلال مظاهر التقدم الحاصل على مستوى المجتمع ويرى بأن التقدم لا يحصل بفعل الحتمية وإنما التطور قد يحصل بفعل تراكم الخبرات، وأن التقدم كمعيار يختلف في تجليه وحدوثه من أمة إلى أخرى، وهو بهذه الفكرة يناهض التاريخانية التي تقول بفكرة التطور المغلق الذي يسير وفق خط واحد، فالتراكم في الثقافة لا يعني سكونها، بل أن التقدم هو ناتج طبيعي للمجتمعات المتفاعلة مع غيرها «فاحتمال التقدم من نصيب الثقافات التي توصلت إلى إنجاز أكثر أشكال التاريخ تراكمية ليست من صنع ثقافة معزولة، بل من صنع ثقافات تفاعلت فيما بينها بإرادتها أو بقراراتها عن طريق الهجرات الاقتصاديات والمبادلات التجارية بل عن طريق الحروب أيضا»[23].

وبهـذا فإن شتراوسClaude Lévi-Strauss يفرض الأحادية التطورية التي فرضتها التاريخية، والتي تجعل من التاريخ يسير وفق اتجاه واحد مستقيم ويتقولب ضمن النتيجة الحتمية الناتجة عن السببية وهوما يسمى بفكرة التبوء* كما يرفض شترواس التاريخ الذي يقوم باستقراء الأحداث التاريخية من خلال الوثائق استقراء ظاهريا غير معمق، فعلى التاريخ أن لا يكتفي بظاهر الحدث وإنما يحاول الغوص في كنه الأحداث «وسبر أغوار الحضارات وتفسير السلوكيات والمعيش وعقل ما يبدوغير معقول في الرموز والأساطير واللغة وشتى تعابير الحياة اليومية لدى الجماعات والشعوب»[24].

فالتطـور التاريخي الذي يراهن عليه شتراوس مرهون بفكرة تحليل بنية الإنسان الثقافية، فلكل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

ثقافة بنيتها الخاصة التي لا تقرأ من ظاهر الخطاب أومن ظاهر الوثيقة بل يجب الغوص أعمق لاكتشافها لأن هذا التطور هوالذي يكشف الأشكال الراهنة من الحياة الاجتماعية، لذلك يصر على دراسة التاريخ من الجانب الإثنولوجي حتى يتمكن من رصد الحقائق مركزة وأكثر موضوعية لأن الإثنولوجيا تنبش في التغييرات وعلاقاتها مع الشروط اللاواعية للحياة الاجتماعية»يفهم من ذلك أن التاريخ يقع في حيز القيل le dit وفي مستوى الظاهر البين Manifesteوعلى سطح المشاهدات، في حين أن الإثنولوجيا تبحث فيما هوتحت القيل وفي ماهوخلف الظاهر، وذلك باستخدامها طرائق الألسنية ذلك بأن الثقافة تنظم المسلكيات (اليومية) كماهوحال اللغة التي تشكل نموذجا للخطاب Modeleبمعزل عن وعي الفرد المتكلم إذا بالمقدور ونحن نتسلح بالأداة لمعرفية الألسنية، أن نتوصل إلى البحث في البنية اللاواعية الكامنة خلف كل مؤسسة، أووراء كل عرف أوتقليد coutume بهدف الوصول إلى مبدأ في التفسير صالح لتفسير مؤسسات أخرى وأعراف أخرى»[25].

وبهذا يحاول كلود ليفي شتراوس من خلال البحث عن البنية ومفهومها ومن خلال علمي التاريخ والنياسة، أن يصل الى البنيات العميقة التي تشكل المجتمعات عن طريق تحليل الصورة الواعية في المجتمع للوصول إلى الصور غير الواعية، لأن هذا العلم لا يمكنه إغفال «تعاقب الأحداث وتقلبات الزمن ولكنها من جهة أخرى لا تتناولها ولا تعتبرها إلا من أجل غربلتها لتصفية «المعطيات البنيوية»، كما أنها حينما تأخذ التغييرات الواعية للظواهر الاجتماعية (أي ما يسميه المؤرخون معطيات) فإنها تخضعها للدراسة لتجد من خلالها البنية المخبأةStructure Cachot، تهدف الإثنولوجيا في منظور – ليفي شتراوس- إلى الوصول عبر الصور الواعية والمتنوعة والمختلفة والتي بتمثلها البشر في صيرورتهم إلى جردة من الممكنات اللاواعية «possibilités inconsciente»التي تقدم عبر دراسة علاقاتها نوعا من الهندسة المنطقية لتطورات تاريخية، قد تبدو غير مرتبة ولكن ليست أبدا اعتباطية بالضرورة »[26].

ونجد لهذه الأفكار امتدادا لدى بردويل Fernand Brodwel لكنه يؤكد بصفة أساسية على أهمية علم التاريخ وأن هذا الأخير يهتم أيضا بالبنية التي تحول إلى شيء أساسي فيه، ويرى بردويل على عكس ليفي شتراوس بخصوص دراسة الأشكال الواعية ضرورة التنقيب على البعد الاجتماعي» في طبقات المدد الطويلة من الزمن التاريخي، إن البنية لا تظهر ولا يمكن أن تدرس من خلال المدد القصيرة أوالمتوسطة، إن التاريخ ذا الاتساع الزمني هوتاريخ البنى ومن هذا الباب يمكن أن نفهم معنى البنية بالمفهوم الذي يدعوإليه بردويل،نعني بالبنية من وجهة نظر دارسي الموضوع الاجتماعيLe social تنظيما Organisation وإطارا متماسكا Cohérences من علاقات ثابتة نسبيا وبين وقائع Réalités وكتل أومجموعات اجتماعيةMasses Sociales، بالنسبة إلينا نحن المؤرخين البنية هي لا ريب نوع من هندسة بنائية Architecture وتركيب Assemblage ولكنها أيضا واقع أوحقيقة واقعية Réalité يحملها الزمن ببطئ. إن بعض البنى ذات الزمن الطويل، تصبح عناصر ثابتة لأجيال غير متناهية هذه البنى تطغى على التاريخ، تعيقه أو تقود جريانه، هذا في حين أن بنى أخرى تكون أكثر قابلية للزوال.....»[27]

فالبنية عند بردويل متحركة وديناميكية ذات بعد تاريخي وزمني وهي جزء من الزمن الدائم المنتهي لا الزمن الأبدي، فهي التي تؤثر على سلوكيات الأفراد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

ونمط تفكيرهم وعيشهم كما أن هذه البنى تتشكل وفق نظام اجتماعي متعدد البنيات بمدد متغيرة أو بمعنى أوضح ليس شرطا أن تتطور كل البنيات مع بعضها البعض، فقد تتطور بنية وتتأخر أخرى وبهذا«مفهوم البنية عند برودويل حية ومتحركة بسرعات ذهنية مختلفة وهي متعددة وليست لها معنى البنية التحتية الماركسية من جهة وليست هي ما تحت الواقع en deçà du Reel كما هي عند ليفي شتراوس من جهة أخرى إنها تعبر عن خطوط القوة ونظامات المعيش المرئيLe Vécu Perçu» [28]

وبهـذا فإن برديل يقوم بعملية الجدل والمماحكة الموضوعية لمبادئ العلوم ويحاول الاستفادة منها قدر المستطاع لتطويعها من أجل الوصول إلى نتائج موضوعية، وإن خالف هذا المفكر آراء المدارس والمناهج الأخرى فهذا الخلاف بناه على أسس موضوعية داعما موقفه بالحجج والبراهين ونجد هذا الموقف يتجلى أيضا في ردة فعله على فكرة الأشكال الواعية1 التي سنها شتراوس والتي أشرنا إليها سابقا، حيث نجد برودیل يرفض رفضا مطلقا الفصل بين الأشكال الواعية والأشكال غير الواعية وفي هذا يقول «إن الانطلاقDépart بين السطح الواضح والأعماق المظلمة، بين الضجيج والصمت صعب والوصول غير أكيد هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التاريخ الذي نسميه تاريخا لا واعيا غالبا ما يكون مرئيا أكثر مما نتصور، من هنا كانت المهمة المنوطة بالعلوم الاجتماعية وخاصة بالتاريخ، إيضاح نسبة الظلمة، وذلك من خلال تصور نماذج مفسرة ومحددة تكون بمنزلة فرضيات وسستمات (أنساق) تفسير مترابطة فيما بينها على صيغة معادلة (Equation) أوصيغة عامل (Fonction)» [29]

كمـا اختلف برديل عن شتراوس في فكرة الواقع والنماذج واعتبر أن النماذج «هي أدوات لوصف الواقع المدرك في لحمته العميقة يمكن أن تكون ثابتة أو ديناميكية ميكانيكية عندما يتعلق بمجموعات صغيرة من البشر أو إحصائية عندما يتعلق الأمر بجماعات واسعة، هذه النماذج يمكن نقلها وتطبيقها على بيئات اجتماعية من الطبيعة نفسها ولكن في كل الحالات يجب إخضاعها للمدة الطويلة، أو المدى الزمني الطويل، لنرى هل طرأ تغير أو تحول بالعودة إلى البنية الأصلية، هكذا يشدد برديل على خصوصية التاريخ بإخضاع مفاهيم البينيوية إلى قانون الزمن التاريخي» [30].

فالزمن التاريخي هنا لا يتحدد وفق مفهوم الزمن الأبدي المنتهي كما في التاريخانية ولا يتحدد أيضا وفق الزمن الارتدادي والتراكمي كما عند ليفي شتراوس وإنما الزمن التاريخي هو ذلك الامتداد المستمر والمنتهي عند نقطة محددة، هذه النقطة تحددها النماذج لتعكس صور التقدم، فالزمن التاريخي يتدرج ضمن سياق مفاهيمي يؤسس للانفتاح غير المشروط أو الانفتاح غير المربوط بفكرة التبوء لأن التاريخ يركز على قراءة الخصائص والتحولات غير أن برودويل ورغم سعيه الجاد في تخليص التاريخ من فكرة النسق المغلق إلا أنه وقع في فخ الحتميات ومن أبرز الحتميات التي تحدث عنها : الحتمية الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية وقد قام بتقسيم الزمن إلى ثلاث أزمنـة:

1- الزمن الجغرافي أو الزمن الجغرافي التاريخي أو الزمن الطويل الأمد وهو الأهم في نظر برودويل، وهوزمن شبه راكد وبطيء جدا ويهم تاريخ علاقة الإنسان بمحيطه الجغرافي (المجتمعات الزراعية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

حيث التقنية محدودة جدا والفضاء والمناخ والتضاريس والسواحل البحرية أشياء رئيسة جدا).

2- الزمن الاقتصادي والاجتماعي: أو الزمن الطرفي أو الدوري وهوزمن أمده متوسط والتغيير فيه بطئ ويهم المجموعات البشرية وأُقتصاديات والدول.

3- الزمن السياسي الفردي أو الزمن الحدثي: وهوزمن أمده قصير وهو التاريخ الوقائعي وهوزمن الأفراد وزمن التاريخ التقليدي القائم على الأشكال الحكومية والسياسية والعسكرية والفنية، وقيمة هذا الزمن ثانوية جدا فهو هيجان سطحي وتاريخ ذو ذبذبات قصيرة وسريعة وعصبية والمطلوب في رأيه الصعود من الأمواج إلى المد والجزر»[31].

ومن خلال تقسيم بردويل Fernand Paul Achille Braudel للزمن نلاحظ أن التاريخ لا يستطيع أن يخرج عن نطاق الحتمية، وأن التاريخ عبر تعاقبه فإنه يسير ضمن حيز اجتماعي أو اقتصادي أو جغرافي أوديني وثقافي يحدد ملامحه العامة ويجعله ينتهي عند نقطة معينة معروفة سابقا، هذه النقطة وإن اختلفت في مظاهرها وبنيتها عن النموذج Modelésوتبلورت عبر المدد الطويل إلا أنها وصلت لمرحلة الانتهاء بفعل الحتميات المذكورة، وبهذا تسقط تاريخية مدرسة الحوليات في فخ الحتمية وبهذا تتحول إلى تاريخانية منتقلة في ذلك من إطار الزمن المنتهي الأبدي إلى الزمن المنتهي الارتدادي وهذا ما انتهى إليه برودويل في معنى التاريخ حيث قال في آخر أيامه: «أعتقد أن الإنسان ليس حرا..... وماركس مخطئ بنسبة 50 % عندما قال إن الناس يصنعون التاريخ، إن الثابت هو أن التاريخ هو الذي يصنعهم وهم يخضعون له ..... إن التاريخ الإرادي وهم ونقطة ماء في محيط»[32].

ومما تقدم نستطيع القول إن الفكر التاريخاني تحول إلى منظومة من القيم تؤطر الفكر الإنساني وتتحكم به، اذ لا يستطيع هذا الفكر أن يتموقع خارج مجال الحتميات التي تحيط به،لذلك تحولت هذه الحتميات إلى قواعد راسخة تتنوع وتختلف باختلاف منطلقات المؤرخين واتجاهاتهم، كما أن التاريخية التي حاولت أن تؤسسها مدرسة الحوليات والقائمة على مبدأ التطور والتغيير في آخر مطافها تحولت إلى تاريخانية بصيغة جديدة، صحيح أنها خرجت من مجال التنبؤ التاريخي اللاهوتي وحطمت مصداقيته لكنها انبنت على التنبؤ التاريخي العلمي النسبي القائم على الافتراضات والحقائق والمقاييس الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، كما أن الإيديولوجية التي رفضت في التاريخانية كرست في التاريخية وفق معادلة الحتميات: اقتصادية اجتماعية جغرافية... وأيضا تحت ما يسمى مبدأ الثقافة التراكمية .

فالتاريخية –حسب ما سبق- تحمل مدلولا ايجابيا يسعى إلى تطوير الوعي البشري، حيث أصبح الإنسان فاعلا في تاريخه منتجا ومؤثرا،يعي اللحظة التاريخية بمرونة ويتفاعل معها،فالتاريخية هي امتياز الإنسان حيث تخرجه من بوتقة السياجات المغلقة لتفتح أمامه مجال الابتكار والتغيير، فهو بذلك يسير وفق مسار التحول ويتفاعل معه ويعيه وعيا تاما، فهو وحده صانع لتاريخه .

بمعنى أوضح أن الظواهر الاجتماعية بما فيها التاريخ تسير وفق قانون التطور والتغيير،وبالتالي لا يمكننا فصلها عن التاريخية بصفتها قانونا لكلية العالم وتجليه . فالتاريخانية والتاريخية تختلفان في فكرة الثبات وتشتركان بفكرة التطور لكن التطور الذي تنشده التاريخانية هو تطور معروف سابقا ينحى منحى تطور الكائن الحي في مراحل نموه وفنائه،وعلى الرغم من أن التاريخانية رفضت فكرة الدائرية المطلقة والتكرار المطابق للأصل، إلا أنها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556

وقعت في فخ التنبؤ وهذا ما رفضته التاريخية وأكدت عليه، فالتاريخية تحاول أن تتعامل مع الظواهر الإنسانية بمرونة مطلقة كما أنها لا تستثني الأساطير والخرافات والحكايات المتوارثة الشفوية والدين على اعتبار أنها أشياء محفزة للمخيال الشعبي كما أنها تساهم في بنائه، وهذا ما رفضته التاريخانية وأصرت على إلغائه بوضع العقل والوثيقة التاريخية المادية من أساسيات التفسير التاريخي، وهي ترفض كل الأحداث المتافيزيقية التي تدخل في تشكيل المخيال كما أنها ترفض الأحداث غير الموثقة .

وما نلاحظه أن الفرق بين التاريخية والتاريخانية فرق وإن بدا جوهريا إلا أنه فرق شكلي فقط ويعتبر أركون*أول من حاول التركيز على التفريق بين المصطلحين، لكن المتأمل لكلا الحقلين يجد أن التاريخية والتاريخانية تسيران وفق خط متقاطع وأن هناك الكثير من العلماء من يتعامل مع المصطلحين على أنهما واحد .

الإحالات والهوامش :

1 وجيه كوثراني:تأريخ التاريخ،اتجاهات مدارس،مناهج إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسات سياسية،ط1 2012، ص25

2المرجع السابق،ص164 بتصرف

3 - جلال الدين سعيد :معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية،دار الجنوب للنشر،تونس،2004،دط،ص 84

4 - وجيه كوثراني :تأريخ التاريخ،ص 199

5 -المرجع السابق :ص 200

6المرجع السابق:ص200

7-المرجع السابق ،ص201

8-المرجع السابق ،ص202

9-المرجع السابق،ص203

10لهادي التيمومي ،المدارس التاريخية الحديثة،دار التنوير للطباعة والنشر،لبنان بيروت،ط1،2013،ص179

11-المرجع السابق ،ص180

12-المرجع السابق ،ص 180

13 -المرجع السابق ،181

14 الهادي التيمومي ،المدارس التاريخية الحديثة،ص 181

15 - وجيه كوثراني ،تأريخ الكتابة التاريخية،ص.203

16المرجع السابق ،ص208.

17المرجع السابق ،ص204

18وجيه كوثراني،تأريخ التاريخ،ص209

19الهادي التيمومي،المدارس التاريخية الحديثة،ص186

-المرجع السابق،ص222 (20)

21المرجع نفسه ،ص223

22المرجع السابق ،ص224

23المرجع السابق ،ص 224

*-التنبوء: وهي فكرة نادى بها أصحاب اتجاه التعاقب الدوري في تفسير التاريخ، فالتاريخ حسب هذا الاتجاه يخضع لمجموعة من الدورات التي تفرض نفسها في كل مرحلة تاريخية والإنسان خاضع لها، "فكل شي يختفي من الوجود يعود مرة أخرى من جديد،وهي حلقات متشابهة كل بداية لابد ان يعقبها نهاية، وكل نهاية يعقبها تكرار للبداية الأولى، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن التاريخ يسير في صيرورة وديمومة دائرية يخضع لها الإنسان والشعوب والحضارات"،انظر أنور محمد زناتي :علم التاريخ واتجاهات تفسيره ص 79 كما نجد هذه الفكرة عند بعض مؤسسي مدرسة الحوليات مثل: مارك بلوخ نظرية التاريخ التراجعي،بردويل.....

24 –المرجع السابق :ص224-225

25– Gye Bourdé et martin Hervé, les écoles historiques (paris : Seuil, 1983 et 1997).

26- وجيه كوثراني، تأريخ التاريخ،ص226

27 المرجع السابق، 229

28-المرجع السابق ص،230،229

29– المرجع السابق، ص230

30- المرجع السابق، ص.230

31 الهادي التيمومي ،المدارس التاريخية، ص186

32 المرجع السابق ،ص 186

-*-ينظر محمد اركون : تاريخية الفكر العربي الاسلامي

-محمد اركون :القران من تفسير الموروث الى تحليل الخطاب الديني - محمد اركون : الفكر الاسلامي قراءة علمية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1556